رحلة أبي الطيب المتنبي

من مصر إلى الكوفة

للأستاذ أحمد رمزي بك

القسم الثاني

تعد رحلة أبي الطيب المتنبي من مصر إلى الكوفة من أروع الرحلات في القرن الرابع الهجري نظرا لما تضمنته من أسماء البلاد والمواقع . وقد كان أبو الطيب حريصا في شعره على أن يسجل الكثير مما رآه في هذه الرحلة ، فقرن الأسماء بخياله الشعري، ووصل إلى درجة رائعة في القصيدة التي وضعها حينما دخل الكوفة والتي جاء فيها :

فلما أنخنا ركزنا الرماح فوق مكارمنا والعلى
وبتنا نقبل أسياقنا ونمسحها من دماء العدى
لنعلم مصر ومن بالعراق ومن بالعواصم أني الفتى

وهي أبيات قرأت ترجمتها بالفرنسية شعرا فوجدتها لم تفقد من قوة المتنبي شيئا ، بل ظهرت شاعريته بلسان الفرنسيين

ولقد خرج أبو الطيب ليلة عيد النحر بعد أن تظاهر بالاستعداد للتضحية وكان قد اختار لنفسه أن يبلن عن عزمه بقصيدة مدح لزعيم من زعماء قيس النازلة في تلك الأيام بجوار بلبيس، وبالاطلاع على ديوانه نقرأ هذه القصيدة ونعلم شيئين:

الأول : كيف انتشرت قيس في إقليم الحوف الشرقي وكيف كانت لها السيادة في إقليم الشرقية

والمتتبع لتاريخ عروبة مصر يجد أن قبائل لخم وجذام وعاملة وذبيان لها منازل بالأراضي المصرية.. ويرى كيف جاء بنو جزي وهم بطن من جزام، وبنو راشدة وهم بطن من لخم، وكيف انحدروا إلى أماكن عرفت بهم بين العريش ومصر، وكيف نزل من نزل منهم بالجزائر من أرض الحوف وهي الرمال البيضاء التي لم تكن تثمرها مياه الفيضان ، وكيف هبط قوم منهم بالمناطق بين سان الحجر والزنكلون وهي التي يطلق عليها اليوم « الزنكلون » فهذه المناطق أصيلة في عروبتها ، ثابتة في أرومتها، فإذا ذكر أبو الطيب قيس عيلان في بلبيس فهو يقصد بمديحه أن يلفت أنظار كافور إلى أن طريقه سيكون إلى الشمال مارا بمنازل عرب الحوف ، فيأخذ كافور عليه الطرق والمسالك، ويقيم عليه الحرس ينقلون من أخباره

ولكن أبا الطيب كان قد اختار طريقا آخر ؛ فبدلا من أن يرحل إلى الدلتا نجد أنه قد أخفى السلاح وروايا الماء في الرمال وركب أسرع الهجن البيجاوية وهبط من الفسطاط جنوبا إلى خليج السويس ثم اتجه من هناك إلى الجنوب مبتعدا عن طريق الحاج ، فوجد أمامه واديا يسميه المعاصرون « وادي سدر » واسمه الصحيح « وادي الصدر » فإذا قطعه اتخذ سبيله إلى قلعة « نخل » القائمة للآن في شبه جزيرة سيناء، قطع هذا على ظهور الهجن في مرحلة واحدة لا تتعدى يومين

فبينما كافور يستعد للاحتفال بعيد الأضحى إذا به يفاجأ بجيوب المتنبي فيقيم الدنيا ويقعدها ويسأل الدلاة وقاصي الأثر ، فلا جواب لديهم . .

وكان كافور يحكم مصر ويحكم الجزء الجنوبي من بلاد الشام ويسيطر على طرق المواصلات في سيناء ، وله الحراس في كل مكان والعيون تنقل إليه أخبار الناس ، فكيف فر أبو الطيب من قبضته ؟ إن هذه الرحلة جديرة بالبحث وقد حاولت منذ سنتين أن أعرف مكان « نجع الطير » وهو نصف المرحلة الأولى من رحلته . ورجعت إلى كافة المراجع التي بين أيدينا فلم أوفق

وتتبعت هجرة بني إسرائيل من مصر لعلي أجد فيها مايقنعني بتحقيق بعض الأسماء الواردة بين مصر وبلدة نخل في وسط سيناء ، ومع صبري وتحملي الطويل لم يسعفني كل ذلك لنتيجة حاسمة ترضي رغبتي

ويصف أبو الطيب هذه الفترة من حياته بقوله عن الهجن البيجاوية :

ضربت بها التيه ضرب القمار إما لهذا وإما لذا
فرت بنخل وفي ركبها من المالئين وعنه لهى

ولهذه القصيدة — كما قلت — رنين موسيقي واعتداد

بالنفس ومرور بالتغلب على مصاعب الأرض ومصاعب الطبيعة لا يمكن أن ينسى

أرددها ثم أنظر توارد الخواطر بين أبي الطيب وبوليوس قيصر في الشطر الأول من البيت الأول : فهو يشبه أقدامه في قطع الفيافي في هذه السرعة في قوله :

ضربت بها التيه ضرب القمار : والتيه هو أرض سيناء والقمار هو مجازفة أمام الحياة الحرة وأمام الوقوع بين براثن كافور وممناه الموت وضياع الأماني

ويذكرني هذا المعنى بما أورده يوليوس قيصر في كتابه عن حروب روما في بلاد الغاليين ، حينما اشتبك في قتال معهم إذ قال (١) إنه ألقى بآماله بين يدي الأقدار كما يلقي القامر بالزهر بين يديه ، فذهب قوله في اللاتينية مذهب الأمثال . فهل أطلع أبو الطيب على هذا ؟ أو نقل إليه حديث قيصر ؟ أو هو مجرد توارد خواطر

ومن المدهش أن قيام إسرائيل بين مصر والبلاد العربية قد أثار طائفة من المشاكل : أولها — كيف الوصول إلى فلسطين وأراضي الشام والحجاز ؟

ولقد رأينا طول الحروب الصليبية بعض هذه المشاكل ، وبعد المتنبي بقرنين من الزمن وثلاث وثلاثين سنة رأى صلاح الدين نفسه في نفس الموقف الذي وقفه المتنبي .. كيف يصل إلى أرض الشام والصليبيون يقطعون الطريق ويحولون دون وصوله ؟ لقد كان أبو الطيب يخشى كافورا وعيونه وحراسه ، وكان صلاح الدين يخشى الأفرنج ومعاقلهم وحصونهم

والغريب أن صلاح الدين اختار أربعمائة من أشجع فرسان الأسدية من التركمان والأكراد وخيم في شمال القاهرة في بركة الحاج حيث تقوم الآن بلدة المرج . واتجه إلى بلبيس ، كما كتب أبو الطيب إلى زعيم بلبيس فلفت الأنظار إلى حركته في الشمال ، ثم في ليلة واحدة قطع المرحلة من بلبيس إلى عجرود ونزل جنوبا بعيدا عن طريق الحاج واخترق وادي الصدر الذي أشرت إليه وعرف كيف يصل « إلى نخل » ولم يكن صلاح الدين فارا فرار المتنبي . . ولذلك تنبه للمواقع فأنشأ على الرابية التي تطل على وادي سدر « الصدر » قلعة لا تزال آثارها قائمة إلى اليوم ، وربط الطرق والمسالك بسلسلة من المعاقل اتقاء هجمات الأفرنج وتسللهم إلى هذه المناطق الحساسة من البلاد العربية

ألا ترى أن رحلة أبي الطيب لم تكن من الأمور التي تسير على غير هدى ، بل كانت موضع درس وعناية ، فلا تندهش إذن حينما تقرأ في خزانة الأدب للبغدادي صفحة ١٤٥ جزء ثان عن المتنبي لما كان في ضيافة عضد الدولة « وكان أبو جعفر وزير بهاء الدولة مأمورا بالاختلاف إلى المتنبي وحفظ المنازل والمناهل من مصر إلى الكوفة وتعرفها منه فقال : كنت حاضره وكان ابنه يلتمس أجرة الغسال فأحد المتنبي إليه النظر بتحديق فقال : ما للمملوك والغسال ؟ يحتاج المملوك إلى أن يعمل بيده ثلاثة أشياء : يطبخ قدره وينعل فرسه ويغسل ثيابه ، ثم ملأ يده قطيعات بلغت درهمين أو ثلاثة »

ويحدثنا الديوان بأن أبا جعفر أخذ شهرا من الزمن يحادث المتنبي في الطرق والمسالك ليأخذ عنه كيف خرج من الفسطاط وكيف وصل الكوفة في ربيع الأول سنة ٥٣١

وبينما أقلب كتابا عن المتنبي بالفرنسية علمت أن مستشرقا ألمانيا كرس جزءا من حياته لدراسة رحلة المتنبي ، وأنا الذي اقتطعت القليل من وقتي لكي أتعرف على بعض هذه الرحلة أجد غيري سبقني إليها فلم أقنط وقلت : قبل اطلاعي على ما كتب فلأخرجها كما تشاء نفسي :

وأمست تخيرنا بالنقاب ... وادي المياه ووادي القرى

فسلام بقية

أحمد رمزي

(١) Alea gacta est le sort en jeté

ظهر المجلد الثالث
من كتاب
وحي الرسالة
للأستاذ أحمد حسن الزيات بك